مطرانية المنيا وأبوقرقاص

آلام المسيح وآلامنا

www.christianlib.com

مكاريوس
الأسقف العام

إيبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

آلام المسيح وآلامنا

الدموع

إعداد :
مكاريوس
الأسقف العام

اسم الكتاب: **آلام المسيح وآلامنا**

المؤلف: مكاريوس، الأسقف العام.

الناشر: إيبارشية المنيا وأبوقرقاص للأقباط الأرثوذكس.

الطبعة: الأولى – نوفمبر ٢٠١٦

المطبعة: مطابع النوبار – العبور.

الغلاف: القس بولا وليم

العناوين: مجدي لوندي

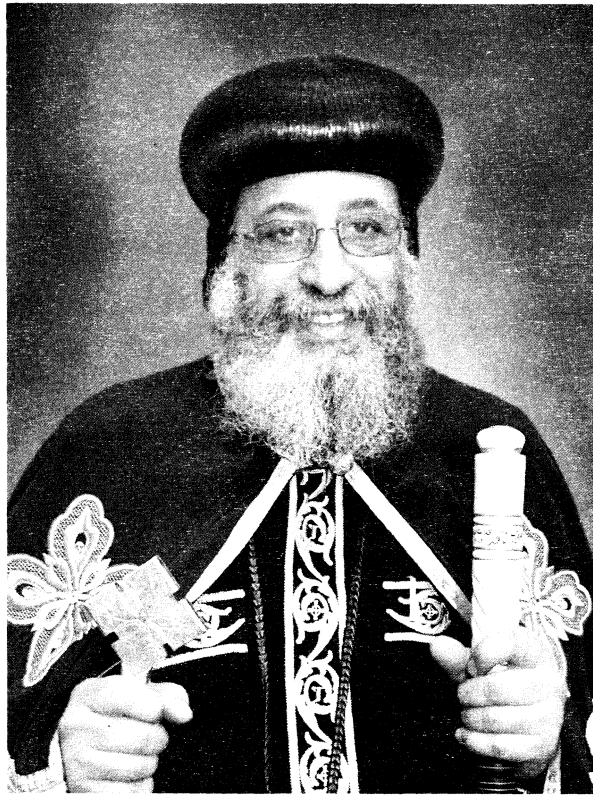

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

نيافة الأنبا أرسانيوس

مطران المنيا وأبو قرقاص

آلام المسيح وآلامنا

«مِنْ ثَمَّ كانَ يَنبَغي أنْ يُشبِهَ إخوَتَهُ في كُلِّ شَيءٍ، لكَيْ يكونَ رحيمًا، ورَئيسَ كهَنَةٍ أمينًا في ما للهِ حتَّى يُكَفِّرَ خطايا الشَّعبِ. لأنَّهُ في ما هو قد تألَّمَ مُجَرَّبًا يَقدِرُ أنْ يُعينَ المُجَرَّبينَ.» (عبرانيين ٢: ١٧، ١٨)

يقول القديس بولس عن المسيح «لأنَّهُ في ما هو قد تألَّمَ مُجَرَّبًا يَقدِرُ أنْ يُعينَ المُجَرَّبينَ»، وآلام المسيح كانت حقيقية وليست وهمية كما نادى البعض مثل الدوسيتيين، ومنهم أخذ البعض الآخر والذين قالوا: شُبِّه لهم. كما أن اتحاد اللاهوت بالناسوت لم يُعفِ الناسوت من الألم، بدليل قول الرب «إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟» (متى ٢٧: ٤٦)، كما ان المسيح في فترة تجسده جاع كما ورد عنه في التجربة على الجبل (متى ٤: ٢)، وعطش قال على الصليب «أنا عَطشانُ» (يوحنا ١٩: ٢٨)، ونام إذ وجده التلاميذ نائمًا في آخر السفينة (مرقس ٤: ٣٨)، وغضب عندما رأى الهيكل قد تحول الى مكان تجارة فصار مثل مغارة لصوص، وبكى عند قبر لعازر (يوحنا ١١: ٣٥)، ومثل أي انسان

تختلج فيه مشاعره اضطرب يسوع؛ عاش حياتنا وعانى معاناتنا وشابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها.

ومن ثَمّ يشعر بآلامنا، كما أنه بينما كان صورة الآب (الصورة الجوهرية = مورفي – فيليبي ٢) بيننا، كان أيضًا ممثلًا لنا لدى الآب. ولعله ونحن نتحدث عن آلام المسيح وآلامنا نتخيل منظر الصليب والمسيح مُعلَّق بين السماء والأرض ليصالح الاثنين معًا من جهة، وليرى الآب البشر من خلاله بينما نرى نحن الآب من خلاله كوسيط بيننا.

إن السيد المسيح لا يُسَر بآلامنا ودموعنا وسجودنا، ولا يطب المزيد ليرضى عنا، وليس كما يظن البعض، وإنما يثمّن ذلك ويقدّره ويحفظ دموعنا في زِقٍّ عنده. إن الطفل المتألم يدمى عيني وقلب أبيه، حتى لو كان الألم ناتج عدم الطاعة له، فهو في النهاية ورغم مخالفته لوصايا أبيه وما نتج عنها من معاناة وألم، فإن الأب يتألم مع ابنه، بل يتألم أحيانًا بدلًا منه. ونظرة سريعة على الابن الضال وكيف التقاه أبوه تكشف لنا موقف الله من البشر، فإن مثل الابن الضال هو قصة البشرية التي انفصلت عن الله وبدأت بالتجارة بمفردها رافضة شراكته، ومن ثَمّ خسرت التجارة

وتجرّحت وسخر منها الأعداء، وسعى الله في إصلاحها متألمًا عنها حتى شُفِيت (الذي بجراحاته شفينا) «وهو مَجروحٌ لأجلِ مَعاصينا، مَسحوقٌ لأجلِ آثامِنا. تأديبُ سلامِنا علَيهِ، وبحُبُرِهِ شُفينا» (إشعياء٥٣:٥).

ويقول إشعياء النبي أيضًا: «في كُلِّ ضيقِهِمْ تضايَقَ، ومَلاكُ حَضرَتِهِ خَلَّصَهُمْ. بمَحَبَّتِهِ ورأفَتِهِ هو فكَّهُمْ ورَفَعَهُمْ وحَمَلهُمْ كُلَّ الأيّامِ القَديمَةِ» (إشعياء٦٣:٩)، أي أن الله يشاركنا آلامنا ويدافع عنا ويبكّت لأجلنا «وبَّخَ مُلوكًا مِنْ أجلِهِمْ، قائلًا: لا تمَسّوا مُسَحائي، ولا تُسيئوا إلَى أنبيائي» (مزمور١٠٥:١٤،١٥). فبالرغم من أن أبانا إبراهيم كذب على فرعون إلّا أن الله دافع عنه. وكذلك إسحق، وكذلك يعقوب دافع عنه أمام لابان ومنعه من أذيته.

وفي دراستنا لمثل السامري الصالح – حيث شُبِّه السامري الصالح بالمسيح – قام بتضميد جراح النفس البشرية التي وقعت بين اللصوص «فتقَدَّمَ وضَمَدَ جِراحاتِهِ، وصَبَّ علَيها زَيتًا وخمرًا، وأركَبَهُ علَى دابَّتِهِ، وأتَى بهِ إلَى فُندُقٍ واعتَنَى بهِ» (لوقا١٠:٣٤). هكذا البشرية التي تجرّحت بالآلام من اللصوص الشياطين، ولم يزل مهتما حتى تم الشفاء من خلال الفندق (الكنيسة).

ومن بين الصور الجميلة في هذا الشأن أيضًا هي صورة الراعي وهو يحمل خروفه على منكبيه وكان قد سقط في وهدة بين الصخور والأشواك، فنزل إليه وحمله وعاد به فرحًا. وفي المتحف الروماني بالإسكندرية يوجد تمثال للراعي الصالح وهو يحمل خروفًا ضعف حجمه، وأسموا اللوحة "ثقل التجديد" أي الثمن الثقيل الذي توجّب على الراعي أن يدفعه لقاء إعادة الحياة من جديد لخروفه الذي ضل.

وصورة أخرى لاشتراك الله في آلامنا ألا وهي النير، فقد قال «اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ... لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (متى ١١: ٢٩، ٣٠)، فمن جهة خفّة النير فإنه إذا اشترك اثنان في نير واحد أحدهما قوي والآخر ضعيف، فإن الحمل كله يقع على القوي بينما يكون للضعيف شرف الاشتراك فقط. أو بمعنى آخر الله لا يتركنا تحت النير بمفردنا، ونقول في إبصالية الأحد: "حلو هو نيرك وحملك خفيف".

ولكننا قد تسلمنا من الرب أن لا نهرب من الألم بل نُسر في الضيقات، لقد عبّر الرب عن ذلك بقوله «يا أبَتاهُ، إنْ شِئتَ أنْ تُجيزَ عَنّي هذِهِ الكأسَ. ولكن لتَكُنْ لا إرادَتي بل إرادَتُكَ»

(لوقا٢٢: ٤٢)، وقيل عن الرسل إنهم خرجوا فرحين «لأَنَّهُمْ حُسِبوا مُستأهِلينَ أنْ يُهانوا مِنْ أجلِ اسمِهِ» (أعمال٥: ٤١)، وصارت الآلالم مثلها مثل الأوسمة، مثلما يفتخر الجندي بالجراحات التي في جسده كعلامة شجاعة وجندية واشتراك في معارك، وصارت له هذه علامة خبرة وشجاعة. أتذكر أن الحارث بن كعب شهيد نجران كشف عن صدره للملك ليريه كم جرحته السهام في الحروب وأنه لم يكن جبانًا بل رجل حرب.

وعندما قال القديس الأنبا بولا: "من يهرب من الضيقة يهرب من الله"، كان يقصد يهرب من التشبُّه بالرب الذي تألم بسرور لأجلنا، وكذلك يهرب من البركة التي يهبها الله من خلال الألم.

والقديس بولس الرسول لا يقبل الألم ويُسر به فقط "أُسر في الضيقات"، وإنما لم يكفه ذلك بل اشتهى أن يتألم كما تألم المسيح وليس جزءًا يسيرًا فقط «الّذي الآنَ أفرَحُ في آلامي لأجلِكُمْ، وأُكَمِّلُ نَقائصَ شَدائدِ المَسيحِ في جِسمي لأجلِ جَسَدِهِ، الّذي هو الكَنيسَةُ» (كولوسي١: ٢٤).

ونحن علينا أن نستخف بما يواجهنا من آلام متذكرين آلام المسيح لأجلنا، وهكذا نشاركه آلامه إذ نتألم ونُعيِّر لأجل اسم

الذي دُعِي علينا. ففي كل مرة نُشتَم فيها لأننا مسيحيين، نتذكر أن المسيح نفسه شُتِم وعُيِّر لأجلنا واحتمل الخزي والعار «ناظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمانِ ومُكَمِّلِهِ يَسوعَ، الَّذي مِنْ أجلِ السُّرورِ المَوْضوعِ أمامَهُ، احتَمَلَ الصَّليبَ مُستَهينًا بالخِزيِ، فجَلَسَ في يَمينِ عَرشِ اللهِ» (عبرانيين ١٢: ٢).

نقطة أخرى في هذا الأمر وهي مشاركة الآخرين في آلامهم، ونعتبر آلام الناس هي آلامنا، نقاسمهم معاناتهم، بكاءًا مع الباكين، نرثي لضعفهم. ولعله من بركات الألم، سواء الناتج عن المرض أو الظلم أو الخسارة، أن يجعلنا نشعر بآلام الآخرين ونرثي لضعفهم. ذات مرة قسا شيخ على راهب حديث الخبرة، فما كان من الله ألّا أنه سمح للشيخ أن يجتاز التجربة ذاتها ليُجرِّب في شيخوخته ما لم يجرِّبه في شبابه.

لذلك ينصح الآباء بأن يكون المدبِّر الروحي قد اجتاز الكثير من الخبرات والتجارب، ومن ثَمّ لا يُعطي أمرًا أو تدبيرًا لا يحياه بالفعل أو على الأقل لم يجتزه أو يختبره في وقت من الأوقات، حتى يشعر بالصغار والضعفاء والمبتدئين.

وعلينا أن نرثي لضعف الناس بشكل عام، ولا نطلق ألسنتنا عليهم بكل جيد ورديء، بل لنصـــلِّ عنهم ونتعاطف معهم ونردّد أننا جميعًا تحت الآلام ومُعرَّضون للتجارب والأمراض والضيقات، وبذلك ينطبق علينا كبشـر أيضًـا «في ما هو قد تألَّمَ مُجَرَّبًا يَقدِرُ أنْ يُعينَ المُجَرَّبينَ».

الدموع

من أجمل عطايا الله الدموع، وهي أبلغ تعبير سواء عن الفرح أو الحزن أو العاطفة الجياشة، وهي مُتَنَفَّس لانفعال شديد داخل النفس، وكبتها يحدث اضطرابًا داخل الإنسان، فالإنسان الذي يواجه مصيبة أو حدثًا جللًا ويضبط نفسه فلا يبكي، ربما ليبدو متماسكًا أمام ذويه، أو لعزة نفس أو لأن "السكينة سارقاه"؛ يسبّب له ذلك معاناة نفسية وجسدية كبيرة، ولذلك فإننا نخشى على الشخص الذي لم يبكِ فقده لأحد أحبائه.

والدموع هي أكثر ما يحنّن قلب الله تجاه الإنسان، وهي كذلك أغلى ما يقدمه الإنسان، حتى أن المرتل يصرّح بأن الله يحفظها في زق عنده: «تَيَهَانِي رَاقَبْتَ. اجْعَلْ أَنْتَ دُمُوعِي فِي زِقِّكَ. أَمَا هِيَ فِي سِفْرِكَ؟» (مز ٥٦:٨). وإن كانت دموع الطفل غالية عند أبويه، وكافية لهدم أيّة حصون وحواجز قامت فيما بينهم، فكم بالأحرى الله! إن دموع الطفل أغلى من الشيء الذي كسره والحماقة التي ارتكبها. وقد تحنّن الله على حزقيا الذي اتضع قدامه «ارْجِعْ وَقُلْ لِحَزَقِيَّا رَئِيسِ شَعْبِي: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ دَاوُدَ

أَبِيكَ: قَدْ سَمِعْتُ صَلاَتَكَ. قَدْ رَأَيْتُ دُمُوعَكَ. هأَنَذَا أَشْفِيكَ. فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ تَصْعَدُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ» (٢مل٢٠:٥). وهكذا فإن دموع المخطئ تحنّن قلب الذي أخطأ إليه، بل تحنّن قلب رجل البوليس والقاضي والسجان، مقابل المجرم الذي يخطئ والطفل الذي يُعاتَب ويتبجّح، فهو مستوجب لعقاب أشد.

انظروا كيف قدمت المرأة الخاطئة توبتها ممزوجه بحبها ودموعها، وكيف قدمت مريم دموعها وطيبها وكأنها تستبق تكفين المسيح، وكيف قبل الله منهما هذه التقدمة الغالية، وكيف تاب الشعب قديمًا: «فَلَمَّا صَلَّى عَزْرَا وَاعْتَرَفَ وَهُوَ بَاكٍ وَسَاقِطٌ أَمَامَ بَيْتِ اللهِ، اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ إِسْرَائِيلَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَوْلاَدِ، لأَنَّ الشَّعْبَ بَكَى بُكَاءً عَظِيمًا» (عزرا١٠:١).

الدموع أيضًا هي مقدسة، يجب أن نتعامل معها بكثير من الخشوع، لذلك عندما يبكي شخص قدامك فلا تنتهره، ولا تسخر منه، ولا تستخف بدموعه، بل اصمت في خشوع حتى ينتهي من دموعه دون أن تشير إليها، بل قل في تأدُّب "دموعك غالية جدًا".

بعض الناس يبكون بدون دموع مثل بعض الأطفال الذين اعتادوا لفت الانتباه واستدرار العطف، والبعض الآخر تنسكب

دموعه دون ندم أو خشوع، فهم أسخياء في الدموع يبكون كثيرًا، وقيل عن دموع البعض أنها "دموع التماسيح"، وبعض الدموع تأتي نتيجة إثارة جسدية وليست نفسية أو روحية، مثل التراب والدخان والحساسية وغيرها.

ويصف الآباء الدموع بأنها كالمطر، فكما ينتظر الفلاح المطر بشغف ويفرح بهطوله، هكذا الإنسان يفرح بالدموع ليروي بها حقله ويليّن بها قسوته، فبالدموع تكثر ثماره وتبلغ تعزيته مداها.

إن الأطفال الذين تعرّضوا للقهر من ذويهم ولم يُعطوا فرصة للتعبير عن اعتراضهم أو تأثرهم بالدموع، بسبب السخرية أو المنع أو الربط بين الدموع والضعف، تسبّب ذلك في كتم نبع دموعهم ومن ثَمّ تعلموا القسوة وكبت المشاعر، وعدم التعاطف مع المتألمين. أنظروا كيف بكى يوسف الصديق وهو في مكانة عظيمة عندما رأى اخوته: «وَاسْتَعْجَلَ يُوسُفُ لأَنَّ أَحْشَاءَهُ حَنَّتْ إِلَى أَخِيهِ وَطَلَبَ مَكَانًا لِيَبْكِيَ، فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ وَبَكَى هُنَاكَ» (تك٤٣: ٣٠)، وكذلك عند موت أبيه: «فَوَقَعَ يُوسُفُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ وَبَكَى عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ» (تك٥٠: ١). كذلك داود العظيم بكى بشدة عند مفارقة يوناثان: «وَقَبَّلَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَبَكَى كُلٌّ مِنْهُمَا

مَعَ صَاحِبِهِ حَتَّى زَادَ دَاوُدُ» (١صم٢٠: ٤١) أي بكى بشدة أو انفجر في البكاء. بل شاول نفسه بكى عندما اكتشف كيف لم يمسه داود بأذى «فَلَمَّا فَرَغَ دَاوُدُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِهذَا الْكَلاَمِ إِلَى شَاوُلَ، قَالَ شَاوُلُ: أَهذَا صَوْتُكَ يَا ابْنِي دَاوُدُ؟ وَرَفَعَ شَاوُلُ صَوْتَهُ وَبَكَى» (١صم٢٤: ١٦). وكذلك رعوئيل وطوبيا أيضًا: «فألقى رعوئيل بنفسه، وقبّله بدموع، وبكى على عنقه» (طوبيا٧: ٦). إن الدموع لا تهز الشخصية ولا تجلب الاحتقار، ربما في بعض المواقف يحسن ألا يبكي الأب دائمًا وكثيرًا قدام أطفاله حتى لا يخافوا أن يبدو أمامهم ضعيفًا فيشعرون بعدم الطمأنينة.

قيل عن الرب يسوع نفسه أنه بكى على قبر لعازر من فرط تأثره: «بَكَى يَسُوعُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!» (يو ١١: ٣٥،٣٦)، وذلك ليسلمنا أيضًا كيف تكون المشاعر الإنسانية الراقية، وكيف أن الدموع ليست ضعفًا بل تقدمة غالية. ويقول الكتاب «وَمَرِضَ أَلِيشَعُ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ بِهِ، فَنَزَلَ إِلَيْهِ يُوآشُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ، وَبَكَى عَلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: يَا أَبِي، يَا أَبِي، يَا مَرْكَبَةَ إِسْرَائِيلَ وَفُرْسَانَهَا» (٢مل١٣: ١٤). وقد رأيت المتنيح البابا شنوده يبكي أكثر من مرة عند توديع أحد الأحباء، لا سيما عندما يتلو

عبارة "الله الذي أعانك يعيننا نحن أيضًا"، كما بكى بشدة متأثرًا في إحدى عظاته.

بكى أحد الحكماء على قبر ولده فقيل له: كيف تبكي وأنت تعرف أن الحزن لا يفيد؟ فنظر إلى سائله طويلًا ثم قال متحسرًا: إن هذا هو ما يبكيني، أي أنه يجد راحته في البكاء. وهكذا نحن قد نجد راحتنا في الدموع مثل مياه تلطف سطحًا ساخنًا، وأرضًا فيها تحاريق. ولولا الدموع لما احتملنا ما يصادفنا في حياتنا من آلام ومتاعب، ويجد الإنسان نفسه بعد نوبة البكاء وقد استراح وهدأت نفسه واغتسل وتطهر، ونظر بشكل جديد إلى سبب آلامه.

أمّا دموع اليتامى والأرامل والمظلومين، فإنها دموع تحرك الله لينصفهم وينتقم لهم ويلبّي لهم طلبتهم، مثلما تحنن على دموع أرملة نايين فأقام لها ابنها، وتحنن كذلك القديس تادرس على دموع الأرملة في أوطيخس فأنقذ لها ابنها، «أليست دموع الأرملة تسيل على خديها؟ أما هي صراخ على الذي أسالها» (سيراخ٣٥:١٨)، وغيرهم كثيرين تقدموا بطلباتهم للمسيح ممزوجة بالدموع «فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي» (مر ٩: ٢٤).